

تفسير البحر المحيط

@ 74 فعل { الّذِينَ كَفَرُوا } لأن المعنى : أن خلقه { السّمّاءاتِ وَالْأَرْضَ

{ وغيرها قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا
بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنّت إليك ، ثم تشتمني أي : بعد وضوح
هذا كله ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو ، لم يلزم التوبيخ كلزومه ب { ثُمَّ } .
انتهى . .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فما معنى ثم (قلت) : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح
آيات قدرته وكذلك { ثُمَّ } أنتُمْ تَمْتَرُونَ { استبعاد لأن تمتروا فيه بعد ما ثبت أنه
محييهم ومميتهم وباعثهم ؛ انتهى . وهذا الذي ذهب إليه ابن عطية من أن { ثُمَّ } للتوبيخ
، والزمخشري من أن { ثُمَّ } للاستبعاد ليس بصحيح لأن { ثُمَّ } لم توضع لذلك ، وإنما
التوبيخ أو الاستبعاد مفهوم من سياق الكلام لا من مدلول ، ثم ولا أعلم أحداً من النحويين
ذكر ذلك بل { ثُمَّ } هنا للمهلة في الزمان وهي عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية ،
أخبر تعالى بأن الحمد له ونبه على لعله المقتضية للحمد من جميع الناس وهي خلق السموات
والأرض والظلمات والنور ثم أخبر أن الكافرين به { يَعدِلُونَ } فلا يحمدونه . .
وقال الزمخشري (فإن قلت) : علام عطف قوله : { ثُمَّ } الّذِينَ كَفَرُوا { . .
(قلت) : إما على قوله : { الْحَمْدُ لِلّهِ } على معنى أن حقيقة الحمد على ما
خلق ، لأنه ما خلقه إلا نعمة { ثُمَّ } الّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعدِلُونَ {
فيكفرون نعمه وإما على قوله { خُلِقَ * السّمّاءاتِ وَالْأَرْضَ } على معنى أنه خلق ما
خلق ، مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه ؛ انتهى . وهذا
الوجه الثاني الذي جوزه لا يجوز ، لأنه إذ ذاك يكون معطوفاً على الصلة والمعطوف على
الصلة صلة ، فلو جعلت الجملة من قوله : { ثُمَّ } الّذِينَ كَفَرُوا { صلة لم يصح هذا
التركيب لأنه ليس فيها رابط يربط الصلة بالموصول ، إلا إن خرج على قولهم أبو سعيد الذي
رويت عن الخدري يريد رويت عنه فيكون الظاهر قد وقع موقع المضمّر ، فكأنه قيل : { ثُمَّ }
الّذِينَ كَفَرُوا * بِهِ * يَعدِلُونَ { وهذا من الندور ، بحيث لا يقاس عليه ولا
يجمل كتابه عليه مع ترجيح حملة على التركيب الصحيح الفصيح ، { وَالّذِينَ كَفَرُوا }
{ الظاهر فيه العموم فيندرج فيه عبدة الأصنام وأهل الكتاب ، عبدت النصارى المسيح
واليهود عزيزاً واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله والمجوس عبدوا النار والمانوية
عبدوا النور ، ومن خصص الذين كفروا بالمانوية كقتادة أو بعبدة الأصنام أو بالمجوس حيث

قالوا : الموت من أهرمن والحياة من ا ، أو بأهل الكتاب كابن أبي أبزى فلا يظهر له دليل على التخصيص والباء في { بِرَّ رَبِّهِمْ } يحتمل أن تتعلق ب { يَعْدِلُونَ } وتكون الباء بمعنى عن أي : يعدلون عنه إلى غيره مما لا يخلق ولا يقدر ، أو يكون المعنى يعدلون به غيره أي : يسوون به غيره في اتخاذه رباً وإلهاً وفي الخلق والإيجاد وعدل الشيء بالشيء التسوية به ، وفي الآية رد على القدرية في قولهم : الخير من ا والشر من الإنسان فعدلوا به غيره في الخلق والإيجاد . .

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ } طاهره أنا مخلوقون من طين ، وذكر ذلك المهدوي ومكي والزهراوي عن فرقة فالنطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها { مِّن طِينٍ } ثم يقلبها ا نطفة . قال ابن عطية : وهذا يترتب على قول من يقول : يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة وذلك مردود عند الأصوليين ؛ انتهى .